المحور الرابع : إشكالية ترجمة البعد الثقافي في الترجمة الأدبية

تمهيد :

تظل الترجمة نشاطا يكتسي أهمية بالغة ويلقى انتشارا واسعا لأنه يتكفل بنقل الآثار الأدبية من مجتمع لآخر مؤديا بذلك دورا هاما في مد الجسور بين الثقافات وكذا زيادة الوعي والتفاهم والتوافق بينها. غير أن الاهتمام بأدب اللغات الأخرى يتطلب مراعاة المشاكل الجدية التي تُواجه ترجمة الأدب وتقصّي صعابها، لأنها تفرض على المترجم التعامل مع نص يتضمن عناصر لغوية وثقافية تعكس فكر المؤلف ونظرته إلى العالم وبيئته، ولا يمكن له بأي حال من الأحوال أن يتجاهلها حتى لا تؤول الترجمة إلى الفشل.

إشكالية ترجمة البعد الثقافي

فضلا عن المميزات اللغوية والنصية المرتبطة بالتأليف الأدبي، نجد اللغة الأدبية أنها ذات صلة وطيدة «بمعتقدات وثقافة وتاريخ المجتمعات والوعاء الذي يحويها ويحفظ مميزاتها والعنصر المحدّد لهويتها، لأن اللغة هي الوسيلة الرئيسية التي تقوم عليها حياتنا الاجتماعية، وترتبط عند استعمالها في سياقات التواصل ارتباطا وطيدا بالثقافة [...] وأن المفردات التي يستعملها الأفراد تجد مرجعيتها في الخبرات المشتركة». (1)

فإذا كانت اللغة الوسيلة الرئيسة التي يتعامل بها أفراد المجتمع والوعاء الذي يحمل كل خبرات الجماعة وتجاربها من خلال ألفاظها وتعابيرها، فلا «يُمكننا فهم هذه الألفاظ والتعابير إلا بمعرفة تلك الثقافة» (2)، وذلك ما أكّده على سبيل المثال اللغويون في مدرسة براغ للدراسات اللغوية أو المدرسة السياقية البريطانية الذين نظروا إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية في المقام الأول، وهي مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالثقافة. فهي بذلك تعتبر جزءا لا يتجزأ من الثقافة بحيث لا يمكن فهم المعنى في أي لغة من اللغات إلا بإرجاعه إلى السياق الثقافي الذي جاء فيه.(3) ذلك ما يستدعي إضافة بعد ثقافي للترجمة الأدبية يتطلب إدراك شحنة المعاني ضمن ثقافة النص الأصل ولغته، ونقل هذه الشحنة من خلال مادة لغوية مناسبة لقرّاء النص الهدف.

لا تنحصر الإكراهات التي تتخلل ترجمة النصوص الأدبية بخصائصها في عقبات لسانية أو ثقافية فحسب قد يستطيع المترجم تجاوزها سواء بتذليل الفوارق أو التقريب بين الثقافات بما تيسر من الأساليب الترجمية المتاحة على غرار أسلوب الاقتراض Borrowing أو التكييف adaptation، بل

تتعداها إلى طرح إشكالية تثاقفية لارتباط هذه الممارسة بعلاقة الآداب بعضها ببعض وبالأيديولوجية أي بالسياسة التي لا تقتصر على الأمن القومي أو الاقتصادي، بل سياسة ثقافية وسياسة في الأدب والترجمة. ويأخذنا الحديث في سياق سياسة الترجمة، إلى الإشارة لتلك العوامل التي تحكم اختيار أنواع النصوص، ليتم نقلها من خلال الترجمة إلى لغة/ثقافة معينة في زمن معين. و يمكننا الإقرار بمدى وجود هذه السياسة بقدر ما كان الاختيار موجها ومدروسا. (4)

لم يبق أثر الأيديولوجية ذلك المبحث الهامشي في الدراسات الترجمية، إنما نجده قد أخذ المركز فيها إلى حد جعل بعض علماء الترجمة يؤكّدون بأن للمترجم دائمًا مواقف تعكس أيديولوجية الثقافة المستقبلة. (5) وغالبا ما تكون الترجمة كما أكدته الممارسة ذات نزعة مثلها مثل أي فعل تواصلي، أملت على المترجم أن يأخذ اتجاها يستجيب للهدف المرجو من الترجمة وموقفا إزاء المتلقي، لغته وثقافته عبر قراراته وخياراته، وهي بالتالي تجعل النصوص تفقد بدرجات متفاوتة شيئا منها. وتتجسد هذه الممارسات عبر استراتيجيات تتباين بتباين المنهجية أو النظرية التي تمليها الرهانات على المترجم ويظهر إثرها موقفه من الترجمة.

استنادا لما سبق، تبيّن أن إشكالية ترجمة البعد الثقافي تُثير خلفية أيديولوجية تتطلب إما التحكم في البعد الأيديولوجي المحدّد لأساليب الترجمة على غرار مفهوم أنطوان برمان (Antoine Berman) في الترجمة الأدبية الداعي إلى الأمانة للنص الأصل والانفتاح على ثقافة الآخر بالتصدي لنزعة التمركز حول الذات، وإما العمل تحت تأثير أيديولوجية تتنكر لثقافة الآخر وتعكس أفكار المترجم ونظرته إلى العالم وتاريخه وبيئته وعقيدته وثقافته، كما هو الحال في مفهوم إعادة الكتابة Rewriting الذي أسّسه أندريه لوفافر (André Lefèvre) والذي يبرُزُ فيه أثر الأيديولوجية في كل الخيارات التي يقوم بها المترجم.

لازمت الترجمة منذ نشأتها الجدلية القائمة بين الأمانة للنص الأصل والرضوخ لمتطلبات اللغة والقارئ في النص الهدف وتأثرها سواء بعناصر لسانية أو إكراهات خارج لسانية. وإذا سلّمنا أنها عملية تحصل بين لغتين وثقافتين مختلفتين، فهي تضع المترجم بين اختيارين: إمّا إعطاء الأولوية إلى لغة الأصل أو إلى لغة الوصول، و وفقهما يتحدّد الهدف من الترجمة. فبين هذا وذاك، نزعت نظريات الترجمة الأدبية بجميع مقارباتها ومرجعياتها إلى اعتماد مبدأ المكافئ الذي يبقى دائما وأبدا يتسّم بالذاتية في كنف جميع النظريات. وتبقى الذاتية التي سبق وأن أشرنا إلى أنها من مميّزات النص الأدبي على وجه الخصوص، الميزة التي لا يمكن بأي حال من الأحوال للكاتب شأنه شأن المترجم التخلُّص منها لأنه لا يستطيع أن يتجرّد من ما هو ذاتي وخاص به دون سواه مثل الأسلوب والخيال واستعمال

الزاد اللغوي الخاص وانتقاء الكلمات. وكذلك الحال، نجد مترجم النصوص الأدبية يتحول من قارئ إلى كاتب ليصوغ النص من جديد في اللغة الهدف، ويتقيّد بدوره بذاتيته ولا يستطيع أن ينصهر بالكامل في شخصية كاتب النص الأصل، ولا يستطيع المترجم مهما توخ الموضوعية إلا أن يترك بعضا من ذاته في الترجمة. (إنعام بيوض، 2003، ص49)

والحال كذلك، نجد الترجمات – مثلما تؤكده الممارسة الترجمية عبر التاريخ – تحمل أثرا للمرجعيات الاجتماعية والنفسية والثقافية وبالأخص الأيديولوجية التي تشبع بها المترجم ويتأثر بها خلال أدائه لعمله، باعتباره فعلا يعكس ذاتيته أي تاريخه وبيئته الاجتماعية والسياسية، أو بمعنى آخر ثقافته وأيديولوجيته ونظرته إلى العالم التي تظهر بمختلف الأشكال اللغوية بجوانبها المعجمية/ الدلالية أم النحوية/التركيبية وتنعكس فيها بوعي أو بغير وعي منه.

خاتمة :

اقترنت صعوبة ترجمة النصوص الأدبية بنقل العناصر الثقافية، وتفرقت في هذا الباب آراء المنظرين بين مؤيد للحفاظ على معاني الأصل وأصالته بكل مميزاته اللغوية والثقافية، وبين داع إلى التكييف والتصرف حتى ترقى الترجمة إلى أفق انتظار القارئ في الثقافة المستقبلة. والحقيقة أن الثقافات لا تكتسب خصائصها إلا باحتكاك بعضها ببعض، ولا يتجسد ذلك فعليا إلا بتقوية الوعي بضرورة التلاقي في مساحة ترى كل ثقافة نفسها تنعكس في مرآة ثقافة أخرى تلتقي بها. وفي هذا السبيل، تنفتح الآفاق لمفهوم "الغيرية" الذي يعد مفهوما جوهريا في المبحث الثقافي، وتتحدد مختلف المظاهر التي تأخذها "الغيرية" في الترجمة وفقا للأسلوب الترجمي الذي نختاره، فهي تأخذ أشكالا متميزة لا يمكن إدراكها إلى حين تمظهرها فعليا في الممارسة، فترجمة "الآخر" تعني أن تأخذ "الغيرية" حقها دون إخضاعها للفرضيات المسبقة. (29) إلا أن هذا المرام يبقى عبارة عن فرضية مجردة لا تصبح ملموسة إلا إذا تجسدت على أرض الواقع، لأن الممارسة الميدانية أثبتت أن الجدلية التي لازمت الترجمة منذ نشأتها بين الأمانة والتصرف تضع المترجم بين اختيارين: إمّا إعطاء الأولوية إلى لغة الأصل أي احترام معاني النص ومميزاته اللغوية والثقافية وقوفا عند متطلبات الحوار والتبادل بين الثقافات، وإمّا إعطاء الأولوية إلى لغة الوصول بإخضاع المميزات الثقافية تارة للطمس أو التشويه وتارة أخرى للحذف قصد حجبها عن القارئ، وعادة ما تجد هذه الإجراءات دوافعها في الأيديولوجية التي تُحدّد الاختيارات والقرارات التي يتخذها المترجم قصد التحكم في عمليات التواصل والتبادل.